

حاجة البشرية لأشهر الحج المعلومات

فؤاد بن علي قاضي

الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي هدانا
لِهَذَا صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ
سُبْحَانَكَ
يَا كَرِيمُ



إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ } [آل عمران: ١٠٢].

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ

وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء: ١].

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُؤُلُوا قَوْلًا سَدِيدًا • يُصْلِحْ لَكُمْ

أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا }

[الأحزاب: ٧٠-٧١].

عندما يهَلِّ هلال شهر شوال من كل عام؛ تحلّ على البشرية أشهر

الحج المعلومات.

ولأن الله تعالى ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته والانقياد لمنهجه

القويم؛ فكان من رحمته بهم أن نوع لهم سُبُل الهداية إليه سبحانه، من

ذلك: أن وضع لهم -في بقعة مختارة على كوكب الأرض- بيته الحرام، يؤمّه

الناس ويقصدونه منذ أذان الخليل إبراهيم عليه السلام فيهم بحجه، قال

تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ

كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

فكان على رأس المجيبين لذلك النداء الرباني؛ صفوة البشر، الرسل

عليهم الصلاة والسلام.



التعبئة الرمضانية الإيمانية القرآنية لأشهر الحج المعلومات

التعبئة والتجهيز المتميز يسبق كل حراك مجتمعي كبير يهدف إلى إحداث تغيير في الفكر والسلوك البشري، فكيف بحراك يرتقي بالناس في معرفتهم بربهم سبحانه وعبادتهم له؟

وكلما كانت شرائح وأعداد المستهدفين أكبر وأكثر؛ كان الإعداد أشمل وأعظم وأحكم، ثم إذا كان من قدر وفرض هذا الحراك هو خالق البشر سبحانه وتعالى؛ فستكون التعبئة والإعداد لهذا الحراك ربانية الصنعة والتقدير!

ومن أعظم المواسم التعبديّة العظيمة التي تلي هذه التعبئة الرمضانية الإيمانية وما فيها من الصيام والقيام والعبادة والتبتل، وشفاء الأرواح وطهارة الأجساد وصلّة الأرحام والصدقات والبركات والنفحات؛ أشهر الحج المعلومات؛ التي يتخللها أفضل أيام الدنيا؛ العشر الأول من شهر ذي الحجة، قال صلى الله عليه وسلم: (أفضل أيام الدنيا العشر - يعني عشر ذي الحجة-) قيل: ولا مثلهن في سبيل الله؟ قال: (ولا مثلهن في سبيل الله، إلا رجل عقر وجهه بالتراب) (١).

فكيف لو عرف البشر أجمعون النصوص الشرعية من الكتاب والسنة التي بينت أفعال إلههم وخالقهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم الجليلة بهم وبأرضهم وبسمائهم في أشهر الحج المعلومات؟! حتى قال ابن عباس رضي

١ - أخرجه البزار (٤٧٦٣)، وصححه الألباني، صحيح الترغيب (١١٥٠).



الله عنه -لعظيم فقهه بهذه النصوص- "لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض"^(٢)!

إن من جوانب العظمة في الحج، امتداد أشهره سبعين يوماً، حتى يوم العاشر من ذي الحجة، فمن جاء بعمره بعد بزوغ هلال شوال فإنه لو حج من عامه لكان متمتعاً، ما لم يقطع ذلك بعودة إلى بلده، لأن عمرته وقعت في أشهر الحج المعلومات! هذا مثال لنذكر أنه وإن كان كثير من الحجاج يفدون إلى البلد الحرام في شهر ذي القعدة؛ فإن أشهر الحج قد دخلت من أول شهر شوال، وأنه لا غرابة أن يفد حجاج في أول شهر شوال، ومن ثم يختارون نوع النسك حينها؛ إمّا التمتع، أو القران، أو الإفراد.



تذكير العالمين بالتوحيد خلال أشهر الحج المعلومات

إن تذكير العالمين كافة بالتوحيد - بنوعيه الربوبية والألوهية - خلال أشهر الحج المعلومات - في بلدة يعلم حتى علماء أهل الكتاب بالنص الشرعي أنها قبلة الناس جميعاً؛ كما قال تعالى في آخر آية القبلية: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

قال أهل التفسير: "وإن الذين أعطاهم الله علم الكتاب من اليهود والنصارى ليعلمون أن تحويلك إلى الكعبة هو الحق الثابت في كتبهم. وما الله بغافل عما يعمل هؤلاء المعترضون المشككون، وسيجازيهم على ذلك" (٣).

إن تذكير العالمين بالتوحيد - بنوعيه - خلال أشهر الحج المعلومات لهو أكبر دليل على عظمة شعيرة الحج؛ التي بلغت عظمتها ليكون استمرار أداؤها أمان من أن تقوم الساعة على الناس! قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى لا يُحج البيت) (٤).



٣ - التفسير الميسر (ص ٢٢).

٤ - أخرجه البخاري (٩٣ ١٥).



تذكير العالمين بربوبية الله تعالى خلال أشهر الحج المعلومات

أما تذكير العالمين بربوبية الله تعالى فيتجلى في أمور لا يقدر عليها إلا رب العالمين سبحانه:

أولها: حفظ الله تعالى لبيته الحرام إلى ما يشاء سبحانه من الزمان، حيث ثبت بالنص الشرعي أن عيسى عليه السلام سيحج البيت^(٥).

الثاني: هذا الحب الإعجازي لبيت الله الحرام؛ الذي أسكنه الله تعالى قلوب عباده المؤمنين؛ فعظموه بالزيارة، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فيجيبون بالملايين آمين البيت الحرام، وتبقى البقية من الملياري مسلم وكلهم شوق وأمل في أن يمكنهم ربهم بالاستطاعة لحج بيته!!

الثالث: الاختيار الرباني لموقع البلد الحرام، وتوسطه على اليابسة من كوكب الأرض.

الرابع: ختم الله تعالى في أمّ القرى رسالاته، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

الخامس: في البلد الحرام بضع آيات بينات، قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

السادس: حبس الله تعالى فيلا وناقة عن دخول البلد الحرام؛ تعظيما لها:



أما الفيل فهو فيل أبرهة، وأما الناقة فناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما بركت في صلح الحديبية ولم تمش حتى قال صلى الله عليه وسلم كلاماً عظيماً بين فيه للناس حرمة مكة، فقال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي - يَعْنِي بِذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرِيشًا - خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتَهُمْ إِيَّاهَا، ثُمَّ رَجَرَهَا فَوُثِبَتْ ...) الحديث^(٦).

السابع: كون البيت المعمور يقع عمودياً فوق الكعبة، فعن قتادة قال: ذَكَرْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: (هَلْ تَدْرُونَ مَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ؟) قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ مَسْجِدٌ فِي السَّمَاءِ تَحْتَهُ الْكَعْبَةُ لَوْ خَرَّ لَخَرَّ عَلَيْهَا، فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ^(٧).

ومعلوم أن أي أمر فيه تذكير بربوبية الله تعالى؛ تحصل منه مقاصد عظيمة للكافرين ولأهل الكتاب وللمؤمنين، ولذلك قال أهل التفسير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر: ٣١]، قال أهل التفسير: "وما جعلنا خزنة النار إلا من الملائكة الغلاظ، وما جعلنا ذلك العدد إلا اختباراً للذين كفروا بالله؛ وليحصل اليقين للذين أعطوا الكتاب من اليهود والنصارى بأن ما جاء في القرآن عن خزنة جهنم إنما هو حق من الله تعالى، حيث وافق ذلك كتبهم، ويزداد المؤمنون تصديقاً بالله ورسوله

٦ - صحيح البخاري (٢٧٣١).

٧ - أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١ / ٥٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٧٧).



وعملا بشرعه، ولا يشك في ذلك الذين أعطوا الكتاب من اليهود والنصارى
ولا المؤمنون بالله ورسوله"^(٨).

وتذكير العالمين في أشهر الحج المعلومات بما مر معنا من أمور لا
يقدر عليها إلا الله تعالى؛ تحصل منها المقاصد التي ذكرها الله تعالى في
آية سورة المدثر، والآية دليل على أهمية الحديث عن توحيد الربوبية؛ ليزداد
المؤمنون تصديقًا بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعملا بشرعه.



تذكير العالمين بتوحيد الألوهية خلال أشهر الحج المعلومات

نأتي الآن إلى جوانب العظمة في تذكير العالمين بتوحيد الألوهية خلال أشهر الحج المعلومات:

إن حكمة وجود البلد الحرام تكمن في خصائصه العظيمة التي أظهرها الله تعالى للعالمين، فهو البلد الحرام الذي ينهل منه الناهلون الطُّهر، ويُصرون صحة الاتجاه في قبلته، ويتلمسون فيه البركة، ويرون فيه الهدى، ويجدون به قيام دينهم وأبدانهم وأموالهم ومدنيتهم المميزة، حتى يصبح لهم مثابةً وأمنًا!

ما أشد حاجة البشرية اليوم إلى وجود مجتمع آمن، طاهر، نقي، تسوده الفضيلة، ويعلو فيه الحق، ويغشاه السلام! بعد أن أذاقهم الهروب من شريعة ربهم وخالقهم، ومحبيهم ومميتهم ألوان الشقاء وأصناف العذاب، عاشوا في متاهات الضياع قرونا، وهم لا يزالون فازين، هارين، لا يلوون على شيء. ولو لم يكن من وجود البلد الحرام إلا إظهار التوحيد وعرض مجتمع التآخي، ومنابذة الشيطان العداوة؛ لكفاه ذلك هداية للعالمين.

فأما إظهار التوحيد وعرض مجتمع التآخي؛ فأني للبشرية المنكبة على عبادة غير الله تعالى -في التصورات وفي العمل- أن تلتفت إلى التوحيد وعظمتها؛ لولا حكمة الله تعالى بتجسيده واقعا عملياً ملموسا في البلد الحرام؛ على الدوام عمومًا، وفي أشهر الحج المعلومات على وجه الخصوص؟!!



بلد التوحيد الخالص

فرق كبير بين أن يتسامع الناس برجل صالح في شعب من الشُعاب، يعبد ربه، وبين السماع ببلد أقامه الله تعالى بكل ما فيه لذكر الله تعالى؛ في الصباح والمساء، يستقي من نبع منهج الإله نظام حياته، طاعة الإله ديدنه، يعبدون الله، ويأكلون باسم الله، نسكهم لله، وخطواتهم في سبيل الله، بيعهم وشراؤهم وفق شريعة الله، طوافهم وسعيهم لله، بلباس شرع الله، ويلهجون بذكر يحبه الله، ينتقلون في موسم حجهم في أماكن حددها الله، في أزمئة وقتها الله، ذكرهم كلمات من وحي الله، يمتنعون عن الأخذ من شعورهم من أجل الله، ويحلقونها أو يقصرونها لله، وبالكيفية التي شرعها الله، يرجون تكفير الذنوب وإزالة الكروب من الله، يرفعون أكف الضراعة إلى الله، ويسكبون العبرات من أجل الله، يعظمون شعائر الله، ويصونون حرمة الله، يحبون خالقهم ويرجون رحمته ويخشون عذابه!!

هذه هي الصورة المجسّدة للتوحيد في بلد التوحيد الخالص، وحينما تنقل الفضائيات هذه الصورة حية؛ أو معادة، تحدث صدمة قوية وعنيفة في نفوس غير المؤمنين، لأنها صورة تحكي قصة التوحيد قولاً وعملاً، وتهز الفطرة التي فطرها الله أصلاً على ملة الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(٩).



وأعظم ما يفرزه هذا التوحيد على أرض الواقع: هو المجتمع المكّي المتآخي؛ الذي اجتمع على التوحيد ليعكس كمال المنهج الرباني، ويظهره في أجمل صورته، وأبهى حلّله، فهنا بشر من خلق الله، أدلة على إخوانهم في الله، طهروا قلوبهم من أدرانها، فلا كبر ولا حسد ولا غلّ ولا حقد، كل ذلك من أجل الله، خفت صوت المنكر بينهم وعلا أمر المعروف لله، جمعتهم كلمة التوحيد؛ لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلا فضل لأبيهم على أسودهم ولا لعربهم على عجمهم إلا بما يفضلون به من تقوى الله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

والصورة الثانية من مظاهر التوحيد التي يراها العالم في بلد الطهر على الدوام، وفي الحج على وجه الخصوص: منابذة الشيطان العداوة التي أمر الله الموحّدين باتخاذها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وجمال هذه الصورة ظاهر في تحديد العدو -الشيطان- الذي طالما راوغ حتى لا يتخذه الموحّدون عدوّاً قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وبذل وسعه حتى ينصرف الموحّدون عن حربه، و يقعوا في الخلاف والشقاق فيما بينهم، والصراعات التي يؤججها بوسوسته، ويؤرّسها فيها بأساليب مكره.

إن البشرية اليوم بحاجة ماسة إلى معرفة عدوّها الأكبر، بعد أن وصل بهم الضياع إلى دركات سحيقة، بلغت حداً خطيراً، عبّد فيه هذا العدو من دون الله، وساد فيها منهجه وشرعه دون شرع الله لدى كثير من الضالين،



حتى أن بعضهم أخذ يعبد هذا العدو حقيقة بطقوس وشعائر؛ فيما يسمى اليوم بعبدة الشيطان.

وهذه اللوحة المكيّة الخالدة، من الاجتماع على التوحيد ومنازمة الشيطان العداوة؛ ما هي إلا نتاج الملايين من المسلمين؛ رسموها بالقول والعمل، حتى غدت لوحة ناطقة تبحث عن التائبين في الأرض؛ لتهديهم إلى دار السلام.

إن الدعوة إلى التوحيد بالقول والعمل هو أكبر شعار يرفعه حجاج بيت الله الحرام منذ بدء توافدهم بدخول أشهر الحج المعلومات؛ وحتى يوم الحج الأكبر!



عشر ذي الحجة

لكن العجيب في هذا الركن العظيم من أركان الإسلام -الحج- أن
يُوجه كل مسلم -حتى من لم يحج- ليشارك هو كذلك في الأيام العشر
الأول من ذي الحجة برفع شعار الدعوة إلى التوحيد!!

أقول لمحبي الدعوة إلى الله تعالى ونشر التوحيد في الأرض -الذين
يتألمون من سماع أن دولة في أوروبا تمنع الحجاب بغضا لشريعة الإسلام؛
أو غير ذلك من إجراءات تعادي الدين الحق في بلدان أخرى؛ ويتمنى هؤلاء
الدعاة والداعيات لو تمكنوا من دفع مئات منهم في أصقاع الأرض لبيان
محاسن الإسلام-أقول لهم: أبشروا بانطلاق مئات الملايين من المراكز
الدعوية في كافة بقاع الأرض بقرابة ملياري داعية؛ وليس المئات فقط؛
يدعون إلى الله تعالى في موسم الحج من كل عام؛ بشتى أنواع العمل
الصالح لحظة دخول شهر ذي الحجة، في أيام يفضل فيها العمل الصالح
على الجهاد في سبيل الله تعالى!!

ولتقريب المعنى: لو أننا شيّدنا مركزا إسلاميا في دولة غير مسلمة؛ يعمل
فيه ثلاثة من الدعاة فقط، وبدأ المركز بالعمل، لوجدنا له أثرا طيبا في التعريف
بالإسلام، فكيف عساه يكون أثر بيوت قرابة ملياري مسلم منتشرين في كل
بلدان الأرض، ينقلب كل بيت منها إلى مركز دعوي لحظة دخول شهر ذي
الحجة؛ يكبر أفراده الله تعالى في البيت وخارجه، ويجتهدون بالأعمال
الصالحة التي يوفقههم الله لها في أيام العشر من ذي الحجة؟! قال صلى الله
عليه وسلم لكل مسلم -وليس للحجاج فقط-: (ما العمل في أيام أفضل



من العمل في هذه، قالوا: ولا الجهاد، قال: ولا الجهاد إلا رجل خرج
يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء^(١٠).

ألا ما أعظمك من إله! وما أكملك من دين! وما أجلك من ركن! وما
أفضلك من أيام! نعم، إنه المنهج الدعوي الرباني الذي يتمثل في دفع كل
مسلم -خلال عشر ذي الحجة- ليدعو إلى الله تعالى بالقدوة الحسنة،
فيرى العالم فيه عقيدة الإسلام وعباداته وتعاملاته بطريقة مهيبه، شملت
مئات الملايين من بيوت المسلمين، في شهر حرام ينخفض فيه معدل
الوقوع في المخالفات الشرعية تعظيما لحرمته، وتكثر فيه الأعمال الصالحة
لكونها أفضل فيه من الجهاد في سبيل الله تعالى.

إن المسلمين في الأرض قاطبة يؤول حالهم خلال الأيام العشر من ذي الحجة إلى:

الصف الأول: حُجَّاج؛ بضعة ملايين، وهم وفد الله من جميع الناس
- كما قال ابن عباس رضي الله عنه- إذ وفقهم الله تعالى لأعظم عمل صالح
خلال أيام العشر من ذي الحجة؛ وهو حج بيت الله تعالى في البلد الحرام
الآمن الطاهر؛ ليكون العمل بالتوحيد ونشره هو الهدف الأسمى لشعيرة
الحج، ويكون للتلبية دورٌ إعلاميٌّ كبيرٌ في نشر كلمة التوحيد، قال صلى
الله عليه وسلم حينما سُئِلَ أي العمل أفضل؟ قال: **(العج، والنج)**^(١١)،
العج: رفع الصوت بالتلبية، ويعكس تواجد مئات الألوف من الرجال والنساء
معا أثناء الطواف والسعي وعند رمي الجمار وفي المشاعر أنموذجا أعلى
للإنسانية في الأمن والطهر والعفاف؛ في زمن أضحى فيه عدم الاحتشام

١٠ - رواه البخاري (٩٦٩).

١١ - أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، وحسنه الألباني السلسلة الصحيحة (١٥٠٠)،

والنج: كثرة إراقة الدماء.



وبغض الحجاب - بل العري والشذوذ الجنسي - ديدن كثير ممن لا خلاق لهم من غير المسلمين، لعلمهم بسماعهم ومشاهدتهم للحجاج ينجدون إلى ذلك الأنموذج الآمن، مجتمع البلد الحرام المميز، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]، فيسلمون له سبحانه، ويخلعون الشرك الذي ينتفي معه الأمن، قال تعالى عن الأمن: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام ٨٢].

الصف الثاني: غير الحجاج؛ قرابة ملياري مسلم!! على كل واحد منهم أن يعي أن ما يقوم به في بلده هو وأهل بيته - خلال أفضل أيام الدنيا، العشر الأول من ذي الحجة، من التكبير والتهليل وتلاوة القرآن ونحر الأضاحي، ونفع الناس، قال صلى الله عليه وسلم: (أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس)^(١٢)، وشتى أنواع العمل الصالح - إنما هو جمع بين العبادة والدعوة إلى الدين الحق، سواء كان يعيش في بلد مسلم أو غير مسلم، فيزداد حماسا في إظهار محاسن الإسلام؛ لعظم الأجر في أيام العشر.

وأخيرا: فليعلم العالم كله - الذي يسمع ويرى سنويًا هذا الحراك الكبير للمسلمين في أشهر الحج المعلومات - أن استمرار هذه الشعيرة العظيمة - حج بيت الله الحرام، وما يحوطه من تعظيم لعشر ذي الحجة، أفضل أيام الدنيا، من أعمال صالحة من قبيل كافة المسلمين - قد جعله الله أمانا من قيام الساعة على الناس، لما في الحج من استمرار لإقامة التوحيد والدعوة إليه، قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى لا يُحج البيت)^(١٣).

١٢ - أخرجه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٠٦).

١٣ - أخرجه البخاري (١٥٩٣).



لقد جاءت الرسالات السماوية لتحقيق أمن الإنسان بحفظ ضروراته الخمس، دينه وعقله ونفسه وماله وعرضه، وقد تلازم حصول الأمن وتحقيقه بالإيمان بالله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، والمتأمل في حياة غير المسلمين يتأكد له افتقادهم للأمن، حين بدلوا التوحيد بالشرك، فأضاعوا الدين، وأفسدوا العقول، وأضاعوا أمن حياتهم باستحلال ما حرم الله تعالى من المسكرات والمفترتات من جانب، ومن جانب آخر بما بثوه من شبهات وفكر منحرف عن هدى الله تعالى في شتى مناحي الحياة.

ثم ترتب على هذا الشرود عن منهج الله تعالى استحلال الفاحشة والشذوذ، فأهلكوا النفوس بأمراض لم تكن معروفة من قبل، ولم ينفذ معها ما أحرزوه من تقدم طبي كبير، ومن جهة أخرى أهلكوا الأنفس يوم تركوا القصص الذي جاء في شريعة الله؛ لردع المجرمين والجناة، بل تفلتوا حتى ممّا تبقى من وصايا دينهم بأن العين بالعين، فضاع بذلك أمن النفوس، كما أفسدوا التعاملات المالية؛ بأن جعلوا قانون العرض والطلب شرعتهم في الاقتصاد، حتى لو كان المنتج صناعة أفلام مخلة بالآداب، فما دامت تُدرّ مالا فهي مشروعة ومقننة، فتلاشى أمن المال!!

وأخيراً: أضاعوا الأعراض بما أعلنوه للعالم من خزي في مجال الجنس، حتى انتكست الفطر بتقنين جريمة الشذوذ التي عاقب الله عليها من ارتكبتها من الأمم السابقة بقلب قريتهم عاليها سافلها، وبذلك انتفى أمن الأعراض عند غير المسلمين!!



أمن مكة المكرمة

وقد جعل الله تعالى البلد الحرام بلدًا آمنًا ليكون بأمنه هدى للعالمين، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

والأمن في مكة المكرمة على قسمين:

أمن قدري، وأمن شرعي:

فالقدري أنه سبحانه أتمها من دخول الدجال، قال صلى الله عليه وسلم: (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة) (١٤)، كما أن الأرزاق آمنة فيها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ نَمَرَاتٌ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]، كما حمى سبحانه ساكنيها من الغزاة الظالمين، قال صلى الله عليه وسلم -يوم الفتح-: (لا تغزى هذه بعد اليوم أبدا إلى يوم القيامة) (١٥).

أمّا الأمن الشرعي؛ بحفظ ضرورات الإنسان الخمس -دينه وعقله ونفسه وماله وعرضه- فقد ضربت مكة المكرمة له المثل الأعلى؛ بطريقة عجزت البشرية أن تأتي بأنموذج للأمن كما أراد الله تعالى للبلد الحرام.

وفيما يلي عرض ذلك:

أولاً: حفظ الدين: شرع الله تعالى للمسلمين -أيما كانوا- شرائع تحفظ لهم دينهم، لكن حفظ الدين تميز في البلد الحرام بزيادة وبمثل أعلى عن غيرها من البلاد، فالإيمان يأرز إليها كما تأرز الحية إلى جحرها، كما

١٤ - متفق عليه.

١٥ - أخرجه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (١٦١١).



دل على ذلك النص الشرعي، وفي مكة -فقط- يمكن للمسلم أن يؤدي الأركان الخمسة جميعاً، قال الحسن رحمه الله: "لا يزال الناس على دين ما حجوا البيت واستقبلوا القبلة"^(١٦)، وغير ذلك من الأمور الكثيرة التي تدل على حفظ الدين في مكة بطريقة مثلى، فهل هناك مثال أعلى لحفظ الدين مما جعله الله تعالى في البلد الحرام!

ثانياً: حفظ العقل: كما شرع الله تعالى للمسلمين -أيما كانوا- شرائع تحفظ لهم العقل من التلف والغياب؛ لكن حفظ العقل تميز في البلد الحرام بزيادة وبمثل أعلى عن غيرها من البلاد، فقد تسبب وجود الآيات البيئات فيها ومشاعرها المقدسة ليس فقط إلى البعد عن كل ما يغيّب العقل من المحرمات؛ بل توجه العقل فيها إلى التفكير في العظيم سبحانه بما خص البلد الحرام من خصائص عظام ميزتها عن غيرها من البلاد: قال تعالى:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُعبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، فالعلم بالله تعالى أصل العلوم كلها، فهو العلم الوحيد الذي يطلب لذاته من بين سائر العلوم، وقد أخبر رب البيت عز وجل بأن تحقيق هذا العلم هو المقصد الأعظم من إيجاد البيت الحرام، فهل هناك مثال أعلى لحفظ العقل مما جعله الله تعالى في البلد الحرام!؟

ثالثاً: حفظ النفس: كما شرع الله تعالى للمسلمين -أيما كانوا- شرائع تحفظ لهم أنفسهم من التلف والهلاك؛ لكن حفظ النفس تميز في البلد الحرام بزيادة وبمثل أعلى عن غيرها من البلاد، فمن المعلوم من



النصوص الشرعية النهي عن ترويع المسلم في أي مكان، ولكن مكة زادت بأن حرم الله فيها ترويع وتنفير وتخويف حتى الصيد، مما يعني من باب أولى تحريم أذى المسلم لأخيه المسلم، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين في الحديث الصحيح شدة حرمة المسلم، وأنه أشد حرمة من الكعبة المشرفة، فهل هناك مثال أعلى لحفظ النفس مما جعله الله تعالى في البلد الحرام؟!

رابعاً: حفظ المال: كما شرع الله تعالى للمسلمين أينما كانوا شرائع تحفظ لهم أموالهم من الضياع والهلاك؛ لكن حفظ المال تميز في البلد الحرام بزيادة وبمثل أعلى عن غيرها من البلاد، ففي مكة لا يتعد المسلم عن الربا وغيره من المحرمات فقط؛ بل زاد على ذلك، فهو يرى اللقطة ملقاة أمامه فلا يلتقطها، كما بينت ذلك النصوص الشرعية، والذي يمتنع عن أخذ المال الملقى؛ فهو من باب أولى لن يسرق المال أو يأكله بالحرام، فهل هناك مثال أعلى لحفظ المال مما جعله الله تعالى في البلد الحرام؟!

خامساً: حفظ العرض: كما شرع الله تعالى للمسلمين -أينما كانوا- شرائع تحفظ لهم أعراضهم من الفاحشة والانحطاط واختلاط الأنساب؛ لكن حفظ العرض تميز في البلد الحرام بزيادة وبمثل أعلى عن غيرها من البلاد، ففي مكة لا يتعد المسلم عن الفاحشة فقط؛ بل إنه يراعي الله في عدم النظر للنساء الأجنبية عليه؛ يظفن معه ويرمين الجمار، فيغض بصره عند البيت مستسلماً لله الذي شرع للنساء أن يظفن مع الرجال، وغضه للبصر في وجود النساء قمة في العفاف، فهل هناك مثال أعلى لحفظ العرض مما جعله الله تعالى في البلد الحرام؟!



وهكذا حفظ الله تعالى مجتمع البلد الحرام؛ بأمنه المُمَيَّر؛ ليكون هدى
لمجتمعات الأرض قاطبة، ولذلك خاطب سبحانه كفار قريش لينظروا إلى
أمن مكة، لعلهم يعقلون؛ فيستسلموا له سبحانه وينعموا بسعادة الدنيا
والآخرة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧].



استشعار حُرمة البلد الحرام

تتجلى رحمة الله تعالى البالغة بالبشرية؛ بجعل أم القرى بلدًا حرامًا، حيث يظهر الموحدون -ممن يسكنها أو من يفد إليها- حرمتها طوال العام؛ وبالأخص في أشهر الحج المعلومات.

إن كون مكة المكرمة بلدًا حرامًا لا يعني فقط ابتعاد المسلم فيها عن الغيبة والنميمة وأذى الناس فحسب، إذ إن المسلم -حتى وهو في أقصى الأرض أو أذناها، في شرقها أو غربها- لا بد من تجنبه الغيبة والنميمة وأذى الناس! لكن النص الشرعي ارتقى بالمسلم في البلد الحرام -زيادة على ابتعاده عن المحرمات المعروفة، من غيبة ونميمة- ارتقى به ليتعامل التعامل الصحيح حتى مع بيئته الزاخرة بألوان الحياة والمنافع المختلفة؛ كالشجر والصيد والمال! فما بالك بتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان؟! قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحَلِّ الْقِتَالَ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحَلِّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقِطُ لُقْطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاةً) (١٧)!!

وحتى نلامس بمشاعرنا تلك الأجواء المعظمة؛ أنقل للقارئ الكريم قصة عمر رضي الله عنه مع الحمامة التي ذرقت على يده شيئًا من قدرها: فقد روى ابن أبي شيبة من طريق الحكم عن شيخ من أهل مكة أن حمأما كان



على البيت فذَرَقَ على يدِ عمر فأشار عمر بيده فطار فوقه على بعض بيوت مكة، فجاءت حية فأكلته، فَحَكَمَ عمر على نفسه بِشَاةٍ!!

لقد استشعر عمر رضي الله عنه أن الله تعالى هو الذي حرّم مكة وليس الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمرْتُ أَنْ أعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وفي صحيح مسلم قال صلى الله عليه وسلم: (إن مكة حرّمها الله ولم يحرمها الناس)، نعم حرّمها سبحانه الحي الذي لا يموت يوم خلق السماوات والأرض؛ لتبقى حرمتها وعظمتها حية في القلوب إلى يوم القيامة، ألا ما أعظم حرمة مكة، وما أطولها في الزمان!

إن تحريم الله سبحانه لمكة؛ إنما هو من تعظيم هذا البلد، وإظهار تميزه، وأن يكون أهله والوافدون إليه على أحسن حال في الاستجابة لأمره سبحانه؛ لما لذلك من أثر على الناس! فإن المسلم الذي يمتنع عن تنفير الصيد في مكة؛ سيبتعد -لا محالة- عن ظلم وأذية الناس في كل تعاملاته، حتى في قيادته لسيارته؛ لن يتهور فيها؛ فيهلك نفسه أو غيره! والذي يترك اللقطة -خاصة إذا كانت مألًا- ولا يأخذها في مكة؛ سيبتعد -جزئًا- عن أكل الحرام! والذي يمتنع عن قطع الشجر في مكة؛ سيبتعد -يقينًا- عن تخريب وإتلاف المرافق العامة والخاصة! وهكذا يغدو التعامل في البلد الحرام راقيا وفاضلا كما أراد الله لهذه البلدة الأمانة أن تكون هدى للعالمين في عباداتها وتعاملاتها.

ما معنى الإلحاد في الحرم؟ وهو المعنى المغاير لتعظيم الحرمات فيه: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ



يُظَلِّمُ نُدْفَةً مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿[الحج: ٢٥]﴾، في هذه الآية الكريمة نهى الله سبحانه عن إرادة الإلحاد في الحرم، وأصل الإلحاد في اللغة: الميل والعدول عن القصد، والملحد هو: المائل عن الحق، قال ابن عطية: "وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على النية السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا في مكة، هذا قول جماعة من الصحابة وغيرهم"^(١٨)، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "لو أن رجلاً بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذاباً أليماً"^(١٩)، قال الألوسي: "وتفسير الإلحاد بما ذكر هو الظاهر، فيشمل سائر الآثام، لأن حاصل معناه: الميل عن الحق إلى الباطل، وهو محقق في جميع الآثام"^(٢٠).

فإذا تبين لك أن الإلحاد أمر عام في جميع المعاصي والآثام فاعلم أن الله توعّد بالعذاب الأليم من أراد ذلك في الحرم، أما من فعل فالأمر أعظم كما بين صلى الله عليه وسلم أن تنتهك حرمة الحرم من أبغض الخلق إلى الله تعالى: قال صلى الله عليه وسلم: (أبغض الناس إلى الله ثلاثة، ملحد في حرم الله، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه)^(٢١).

أخي ساكن الحرم أو زائره، وأنت في البلد الحرام جاهد نفسك لتكون أعمالك ومقاصدك على السداد، قال الألوسي: "فينبغي لمن كان فيه - يعني الحرم- أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد في جميع ما يهم به

١٨ - تفسير ابن عطية (١١٦/٤) .

١٩ - تفسير ابن كثير (٤١١/٥) .

٢٠ - روح المعاني (١٧/١٤٠) .

٢١ - صحيح البخاري (٦٨٨٢) .



ويقصده" (٢٢)، واحرص على أن تكون سريعا في طاعة الله، بعيدا عن معصيته.



قَدْرُ الْوَافِدِ إِلَى الْبَلَدِ الْحَرَامِ

لقد رفع الله تعالى قدر وفده الكرام؛ حجاج بيت الله الحرام، لهذه الأمور العظام، وفد اختاره الله تعالى واصطفاه، فلا يملك القلوب إلا الله، قذف فيها حب وتعظيم بيته الحرام، فوفدوا إليه آمين من كل فج عميق!! ليدخلوا - لحظة انطلاق تلبيتهم لله تعالى - في منظومة الحُرُمات!! وصاروا مُعْظَمِينَ كالبيت الحرام! قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]، عن زيد بن أسلم قال: "الحُرُمَاتُ خمس: المسجد الحرام، والبيت الحرام، والبلد الحرام، والشهر الحرام، والمُحْرِمُ ما دام مُحْرِمًا".

يُحْرِمُ الْمُصَلِّي بِقَوْلِهِ "اللَّهُ أَكْبَرُ" فَلَا يَقْطَعُ النَّاسَ صَلَاتَهُ -تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى- حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْهَا، وَكَذَا الْوَافِدُ يُحْرِمُ بِقَوْلِهِ عِنْدَ مِيقَاتِهِ "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ عُمْرَةً، أَوْ حَجًّا، أَوْ عُمْرَةً فِي حَجٍّ" فَيَصْبِحُ مِنَ الْحُرُمَاتِ الْمُعْظَمَةِ -تَعْظِيمًا لِلَّهِ تَعَالَى- حَتَّى يَحِلَّ مِنْ إِحْرَامِهِ!

عَلَى الْمُقِيمِينَ أَنْ يَسْتَشْعِرُوا هَذَا التَّعْظِيمَ لِلْمُحْرِمِ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ وَالتَّعَامُلَ مَعَهُ، وَكَيْفَ لَا يُعْظَمُ وَحُرْمَةُ الْمُسْلِمِ أَشَدَّ -حَتَّى فِي حَالِ حِلِّهِ- مِنْ حُرْمَةِ الْكَعْبَةِ، كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (مَرْحَبًا بِكَ مِنْ بَيْتِ، مَا أَعْظَمَكَ، وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ! وَلِلْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ حُرْمَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ) (٢٣)، فَكَيْفَ عَسَاهَا تَكُونُ حُرْمَتَهُ وَهُوَ مُحْرِمٌ؟!

عَبَّرَ الصَّحَابَةُ عَنْ عَظِيمِ قَدْرِ هَذَا الْوَافِدِ بِجُمْلٍ عَظِيمَةٍ!! فَهَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "لَوْ يَعْلَمُ الْمُقِيمُونَ مَا لِلْحَجَّاجِ مِنْ حَقِّ عَلَيْهِمْ لِأَتْوَهُمْ

٢٣ - أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢٠).



حين يقدمون إليهم ولقبّلوا رواحلهم!!^(٢٤) ذلك أنهم وفد الله من بين الناس، ولا ريب أن هذه منه رضي الله عنه تعظيماً لشأنهم، وهو خبر هذه الأمة وعالمها.

إنه وفد قد أخذ على عاتقه رفع كلمة التوحيد خلال رحلته عالياً، تائبين ذاكرين، مهللين ومكبرين، حتى الجدال تركوه؛ ليظهروا عظمة هذا الدين القويم!! قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [الحج: ١٩٧].

خط لهم سبحانه العلي الكبير مسار رحلتهم من البداية وحتى النهاية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩] انطلقوا في رحلة غير عادية، ينتقلون فيها على هذه الأرض؛ متبعين أوامر السماء!! حتى محظورات إحرامهم إذا أخلوا بها؛ صححوا خطأهم من وحي السماء!

الأحجار والأشجار لها شأن معهم، فهي تليبي متى ما لبوا، قال صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يلبى إلا لبي من عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر) ^(٢٥)، ثم تأمل عطايا الوهاب الجواد الكريم لهم؛ كيف جعلهم مستجابي الدعوة، قال صلى الله عليه وسلم: (يغفر الله للحاج ولمن استغفر له الحاج) ^(٢٦)، وقال صلى الله عليه وسلم: (وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفَدُّوا اللَّهَ، دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ، وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ) ^(٢٧).

٢٤ - الدر المنثور (٥٠٧/١).

٢٥ - أخرجه الترمذي (٨٢٨)، وابن ماجه (٢٩٢١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٧٠).

٢٦ - أخرجه ابن خزيمة، وحسنه ابن حجر، الفتوحات الربانية (١٧٦ / ٥).

٢٧ - أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٧١).



ولو باهى مسؤول في هذه الدنيا بشخص أمام آخرين؛ لطار فرحا!
فكيف ورب الأرباب يدنو سبحانه من عباده عشية عرفة يباهي بهذا الوفد
ملائكة لا يحصيهم إلا الله تعالى؟!

غفران الذنوب وجنة عرضها السماوات والأرض هي الجزاء الأوفى لهذا
الوفد الكريم، قال صلى الله عليه وسلم: (من حج فلم يرفث ولم يفسق
رجع من ذنوبه كيوم ولدته) ^(٢٨)، وقال صلى الله عليه وسلم: (والحج
المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) ^(٢٩).

ثم يكون الأثر الأكبر لقدوم هذا الوفد الكريم؛ أن تأمن البشرية من قيام
الساعة؛ مادام وفد الحجيج مستمرا في قصده البيت العتيق! قال ابن عباس
رضي الله عنه: "لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على
الأرض!" ^(٣٠).

حقا؛ إنَّ رحلة الحج لا يمكن وصفها بكامل أبعادها العظيمة! فإنه وإن
كان بإمكاننا الحديث عن الوافد بما ثبت بالنصوص الشرعية، أقواله وأعماله
وتنقلاته وما وهبه الله تعالى من عطايا ومنن، فأنى لنا أن نصف رب هذا
الوافد العظيم وملكوته؛ إلا بما وصف به نفسه؟! ثم تبقى بعد ذلك حقائق
عن ربنا سبحانه؛ لا تقر بها أعيننا إلا يوم أن نلقاه ونراه سبحانه الواحد العلي
القهار، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].



٢٨ - متفق عليه.

٢٩ - متفق عليه.

٣٠ - تفسير ابن كثير (٤١٣/١).



إنها القبلة

تنجحه أنظار وقلوب المسلمين في كل بقاع الأرض في الأيام المباركة - عشر ذي الحجة- نحو قبلتهم التي جعلها الله تعالى هدى للعالمين! ولئن كان هدى البيت للعالمين كافة؛ فكيف عساه يكون هداة لهم كمؤمنين؛ وقد ارتبطوا بها خمس مرات في اليوم واللييلة؛ يتجهون إليها في صلاتهم، بل ويوجهون إليها في قبورهم بعد مماتهم؟!!

إنها قبلتهم في توحيدهم لله تعالى؛ سواء توحيد معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العليا، قال تعالى في بيان أن المقصد الأعظم من وجود كعبة التوحيد هو معرفته سبحانه: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ الْكُفَّةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧]، أو توحيد الطاعة والاتباع، قال تعالى -حكاية عن الخليل عليه السلام وهو يرفع قواعد البيت قائلاً-: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]!!

وهي قبلتهم في الطهر من كل الخبائث والآثام؛ الحسية والمعنوية، كيف والطهر أول أعمال التوحيد العملية التي أمر بها سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم؟! قال تعالى: ﴿وَتِيَابَكَ فَطَّهَّرْ﴾ [المدثر: ٤]!! فحري بكل مسلم في كل بقاع الأرض أن يطهر نفسه وأهله وبيته من كل ما يخالف الشرع الحنيف، خاصة وقد بارك ومد الله تعالى له في عمره وأدرك أفضل أيام الدنيا؛ عشر ذي الحجة!!



وهي قبلتهم في أمنها الذي خصها الله تعالى به، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]!! فحري بكل مسلم في كل بقاع الأرض أن يعي المفهوم الشامل للأمن في الإسلام؛ وهو حفظ الدين والنفس، والعقل، والمال، والعرض!! عاملا بتشريعات ربه تعالى التي تحقق له أرقى درجات الأمن في هذه الضرورات الخمس كلها!

وهي قبلتهم، وفيها حجران يكفر الله تعالى خطايا العبد بمسحهما، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مَسْحَهُمَا كَفَّارَةُ الْخَطَايَا) (٣١) هي قبلتهم في تذكيرهم بضرورة استمرار توبتهم إلى الله تعالى وطلب مغفرته وعفوه.

وهي قبلتهم في تذكيرهم بمآلهم الأخروي الذي يطمعون فيه، جنة عرضها السماوات والأرض! فحري بكل مسلم في كل بقاع الأرض أن يكون توجهه نحو القبلة وحجرها الأسود الذي نزل من الجنة؛ تذكيرا له بالجنة مرات عديدة في اليوم واللييلة.



يوم عرفة

لقد خص الله يوم عرفة بالكثير من الفضائل والبركات، يا أهل عرفة إنه وادي نعمان، وما أدراكم ما وادي نعمان؟!، فإننا قد جئنا للدنيا بعد حشر! وفي عرفة الحجاج في حشر! وسنمضي من هذه الدنيا إلى حشر.

أما حشرنا الأول؛ فكان هنا في عرفة -وادي نعمان- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان)، يعني عرفة (فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا)، فقال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا﴾ الآية - إلى ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣] (٣٢). في نفس المكان في وادي نعمان -عرفة- يكرم الله تعالى حجاج بيته الحرام، ويحشرهم ليسألوه حاجاتهم ومسائلهم؛ في يوم يباهي بهم سبحانه ملائكته الكرام، ويعتقهم من النار، قال صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه من النار من يوم عرفة) (٣٣)، ثم يذكرنا سبحانه -في كتابه الكريم- في سور كثيرة بأن تقيمه، لأننا إليه سبحانه سنحشر، كما يذكرنا في معرض الحديث عن الحج بذلك الحشر القادم، قال تعالى: ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، اللهم اجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

٣٢ - أخرجه أحمد، وانظر السلسلة الصحيحة (١٦٢٣).

٣٣ - أخرجه مسلم (١٣٤٨).



يوم الحج الأكبر!

نعلم أن كيد الشيطان ضعيف على المؤمنين المتحصنين بذكر الله، كما نعلم في المقابل أن نصوصا شرعية وعبادات قولية وعملية حذرت من مكروه وكيده، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ثم اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل أول أعمال يوم العيد الأكبر ونسكا من أنساكه؛ رمي جمرة العقبة؛ ليكون الرمي أعظم مذكر عملي بعداوة الشيطان الرجيم!! ثم يستمر رمي الجمار يومين للمتعجل وثلاثة أيام للمتأخر؛ لينال المسلم مزيدا من الأجر والقرب إلى الله تعالى، وزيادة في ترسيخ العداوة للرجيم أعاذنا الله تعالى منه!

وعلينا ألا نغفل عن التحصن بالأذكار الشرعية الصحيحة لدفعه ودحره، قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ شَرَّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]: "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس" (٣٤).



أيام التشريق

إن من النعم العظيمة التي رزقنا الله تعالى؛ بهيمة الأنعام، حيث قد ملأ الله بها الأرض، نأكل من لحمها ونشرب من لبنها، ونستفيد من أصوافها وأوبارها وأشعارها، جاء ذكرها في كثير من آي الكتاب العزيز، من ذلك: ذكرها عند الحديث عن خلق آدم وزوجه عليهما السلام، مما يدل على أهميتها للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦].

ويأتي الحج مذكراً - كما في آيات سورتي البقرة والحج - بوجود ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً في أيام معلومات؛ شكراً له على عظيم آلائه، لتعجُّ الأرض بكلمات التوحيد من كل مسلم على وجهها، وخص من هذه النعم بهيمة الأنعام؛ بأن يذكر اسم الله تعالى عليها عند ذبحها، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، قال ابن كثير في تفسيره: "يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل" (٣٥).

ثم يمضي الحجيج في ذكرهم لله تعالى في أيام التشريق؛ التي جعلها الله تعالى أيام أكل وشرب وذكر لله تعالى، حتى تغرب شمس يوم الثالث عشر من ذي الحجة؛ فينتهي رمي الجمار ويستمر ذكر العزيز الغفار، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]!!



وأخيراً: فهذا حديث عظيم عن النبي صلى الله عليه وسلم، يخبرنا فيه عن كرم الله تعالى وجوده لحجاج بيت الله الحرام، قال صلى الله عليه وسلم: (فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفًا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة، وأما وقوفك عشيّة عرفة فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول: عبادي جاءوني شعثًا من كل فج عميق يرجون جنّتي فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتّها، أفيضوا عبادي مغفورًا لكم ولمن شفعتهم له، وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفر كبيرة من الموبقات، وأما نحرّك فمدخورٌ لك عند ربك، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ويمحى عنك بها خطيئة، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك ويأتي ملكٌ حتى يضع يديه بين كتفك، فيقول اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى) (٣٦).

اللهم اجعل هذا البلد آمنًا، اللهم تقبل من الحجاج حجهم، واجعله حجًا مبرورًا وسعيًا مشكورًا.

